

الباب السادس

طراز العصر الأيوبي في مصر وسوريا

(٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) (١١٧١ - ١٢٥٠ م)

نشأ «صلاح الدين الأيوبي» الكردي الأصل في بلاط «نور الدين زنكي» حاكم دمشق، وجاء إلى مصر في صحبة عمه «أسد الدين شركوه» قائد الجيش السوري، الذي أرسله «نور الدين» لنصرة «شاور» وزير الخليفة الفاطمي «العاقد»، على الوزير الفاطمي «ضرغام» الذي استنجد «بعموري» حاكم فلسطين. ولما انتصر الجيش السوري على الجيش الصليبي كافأه الخليفة بتقليده منصب الوزارة في مصر.

وانتهز «صلاح الدين» الطموح - السني المذهب - فرصة مرض «العاقد» ونادى باسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة بدلا من اسم الخليفة الفاطمي وتمكن بعد موت «العاقد» آخر الخلفاء الفاطميين من الاستقلال بحكم مصر في عام ٥٦٧ هـ - ١١٧١ م، واتخذ لنفسه لقب السلطان وأسس الأسرة الأيوبية كما تمكن بعد موت «نور الدين» في عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م من ضم دمشق إلى مملكته واستولى على حلب في نفس العام. وفي خلال عشر سنوات دانت له سوريا والعراق، وفي عام ٥٨١ هـ - ١١٨٧ م تمكن من الاستيلاء على أورشليم من المسيحيين، واسترد من النورمانيين حكم طرابلس، وبذلك تكونت لديه مملكة متسعة شملت أيضاً بلاد الحجاز واليمن.

توفي «صلاح الدين» في دمشق في عام ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م، فوزعت الدولة بين أفراد أسرته مما أدى إلى إضعافها. وكانت المراكز هي: القاهرة - دمشق - حلب. وانتهى حكم الدولة الأيوبية لمصر في عام ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م بعد أن توفي آخر ملوكهم الصالح نجم الدين أيوب، واستبدل بحكام جدد هم المماليك. كما استولى المغول على العراق وسوريا فيما بعد.

كانت لانتصارات صلاح الدين الحربية على الصليبيين شأن كبير في ظهوره كزعيم مهم في بلاد العالم الإسلامي ، كما كان لحكمه أثر كبير في مصر من الناحية الدينية حيث أرجع المذهب السني مرة ثانية إليها ، وبذلك توثقت علاقتها مع الدول التي تدين بهذا المذهب . ولقد تميز عهد الأيوبيون بجيش قوى يشمل خليطاً من الفرسان العرب والترك والأكراد .

ولقد صارت القاهرة في العصر الأيوبي المركز الرئيسي في مصر من الناحية الاقتصادية والفنية ، وامتدت المباني في القاهرة حتى اتصلت بالقسطاط ، وزخرت بالمباني العالية التي ارتفعت إلى أربعة طوابق ^(١) . وكانت القاهرة قبل ذلك تقتصر على كونها مقر بلاط الخلفاء الفاطميين ، أما الزعامة الاقتصادية فكان مركزها مدينة القسطاط في عصر الفاطميين والعصور السابقة لهم .

العمارة :

لم يخلف لنا العصر الأيوبي في مصر عمائر دينية كثيرة وذلك لانشغالهم بالحياة العسكرية . واقتصر ما عثر عليه على بعض المدارس والأضرحة . ويرجع الفضل إلى العصر الأيوبي في التطور الذي طرأ على شكل المئذنة التي عرفت باسم المنخرة .

المدارس والأضرحة :

يرجع اهتمام الأيوبيين ببناء المدارس إلى رغبتهم في التخلص من المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السني . ووصل عددها في عام ٦٠٣ هـ - ١٢٠٦ م إلى ١٣ مدرسة . ولقد نقل « صلاح الدين » طراز المدارس السلجوقية المعروف في سوريا إلى مصر . فكان تصميم المدرسة ينجصر في المبنى المستطيل الذي يتوسطه فناء كبير مربع ، ويتوسط كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان كبير . وبذلك لم يخرج تصميم المدرسة عن شكل الجامع المتعاود التقليدي المعروف . ولقد شيدت في مصر في أوائل العصر الأيوبي مدارس ذات إيوانين ثم ظهر بعد ذلك الطراز

(١) الباز العريبي « مصر في عهد الأيوبيين » ص ٢٦٢

ذو الإيوانات الأربعة ، ومن هذه المدارس المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية ، كذلك مدرسة « الصالح نجم الدين أيوب » الملحقه بضريحه^(١)

ومن العماثر الدينية في حلب مدرسة صلاح الدين ٥٨٧ هـ (١١٩٣ م) والمسجد الكبير الملحق بالقلعة ٦١٠ - ٦١١ هـ (١٢١٣ - ١٢١٤ م) .

ومن أشهر الأضرحة الأيوبية في مصر ضريح الإمام الشافعى الذى بنيت قبته في عهد السلطان « الكامل محمد » (٦٠٨ هـ - ١١١٢ م) . ولقد جددت قبة الضريح بعد ذلك في عهد بعض الحكام المماليك ، مرة في عهد السلطان « قايتباى » ، ومرة أخرى في عهد الملك الأشرف « قنصوه الغورى »^(٢) . وبالرغم من هذه التغيرات إلا أن تصميم القبة الأيوبى الأصل يمكن رؤيته .

يتكون ضريح الإمام « الشافعى » من حجرة كبيرة مربعة تعلوها قبة عالية محززة ، ويفصل القبة عن جدران المربع دائرة اسطوانية تزخر بالحنايا أو المقرنصات في الأركان الأربعة (١٤٩) وتتكون حنايا الأركان من ثلاثة صفوف ، خمسة في الصف الأول ، وسبعة في الصف الثانى ، وثلاثة في الصف الأخير . وهنا نلاحظ التطور الذى أدخله الأيوبيون في بناء القبة حيث زاد عدد صفوف المقرنصات عما كانت عليه في العصر الفاطمى إذ كانت تتكون من صفين فقط . ولقد استمر هذا التصميم يتبع في أضرحة العصر المملوكى في مصر لمدة ثلاثة قرون .

ويرجع التابوت الخشبى الجميل الموجود بضريح الإمام الشافعى إلى فترة التجديد الذى أجراه صلاح الدين الأيوبي . وتتكون زخارفه من أشكال هندسية بها زخارف لوحات نباتية دقيقة ، وتكون هذه المناطق الهندسية أشكالاً نجمية .

ومن خصائص الطراز الأيوبي أيضاً العقود المحلرية التى تزخر بالجدران الداخلية . ويستمر ظهور هذا الأسلوب الأيوبي في مقابر الخلفاء العباسيين التى شيدت في القاهرة في عصر المماليك .

(١) العمارة الإسلامية في مصر ، للدكتور كمال الدين سامح ص ٦٢ ، ص ٦٣

(٢) العمارة الإسلامية في مصر للدكتور كمال الدين سامح ص ٣٤

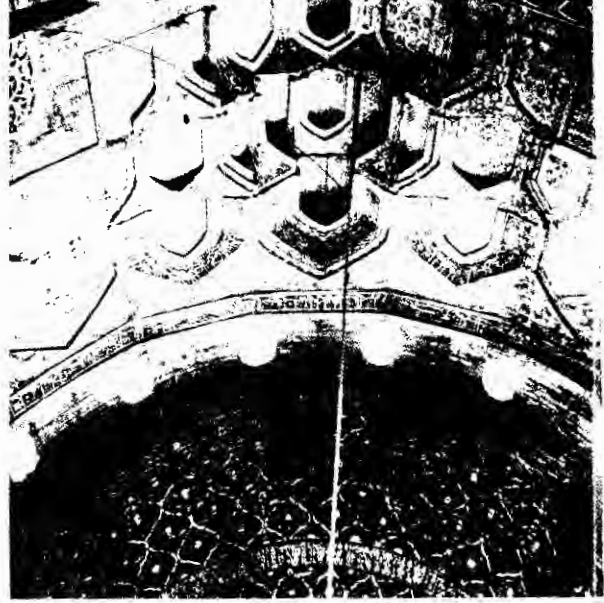
العمارة الحربية :

امتاز العصر الأيوبي في مصر وسوريا بالعمائر الحربية ، وذلك لتدخل عهد هذه الدولة بسلسلة من الحروب المستمرة . فاهتم الأيوبيون ببناء القلاع والحصون والمعسكرات . ومن العمائر الدفاعية التي أنشأها صلاح الدين بمصر سور يحيط القاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط) ، وقلعة الجبل المشيدة داخل هذا السور الذي أتم بناءها أخوه العادل ، ولقد أشرف على تشييدها الأمير بهاء الدين قراقوش . كذلك اهتم صلاح الدين بتحصين سوريا والقدس .

ولقد أدخلت تعديلات وإضافات على قلعة حلب التي شيدت عام ٦٠٧ هـ - ١٢١٠م في عصر الأتابكة . وكانت أول إضافات في عهد أول سلطان أيوبي لمدينة حلب وهو الظاهر غياث الدين غازي (٥٨٢ - ٦١٣ هـ) (١١٨٦ - ١٢١٦م)^(١) ، حيث أحيط المدخل بزوج من الأبراج الضخمة التي يتصل بعضها ببعض بواسطة كوبرى طويل ، به صف من العقود العالية المدببة (ش ١٥٠) . ويظهر بهذه القلعة ابتكارات معمارية توصل إليها المهندسون ليوفروا لها التحصينات اللازمة . وتعد قلعة حلب من أقوى التحصينات التي عرفت في العالم الإسلامي وأمنها .

أما من جهة الزخارف المعمارية ، فنجد أن الأيوبيين كانوا يكسون الجدران بأشرطة من الزخارف الجصية التي تتكون من عناصر نباتية دقيقة وزخارف مجردة . وتتميز الزخارف الخارجية الموجودة بالقبة الأيوبية ببساطتها ، وتقتصر على زخارف هندسية في نهاية الشريط الجصى الموجود بالجزء العلوى للجدران . كما يوجد في الجزء العلوى الذى يحمل القبة محاريب محارية ذات عقود مثلثة مزينة بزخارف جصية . وينتهى هذا بجدار من أعلى به زخارف مثلثة مسننة . وتظهر الزخارف الحجرية في واجهة مدخل مدرسة الصالح نجم الدين أيوب .

(شكل ١٤٩)
ضريح الإمام الشافعي ، القبة من
الداخل ، القاهرة ، القرن ٨٧ -
١٣ م ، العصر الأيوبي .



(شكل ١٥٠)
قلعة مدينة حلب بالشام ، ٦٠٧ هـ -
١٢١٠ م . العصر الأيوبي .



(شكل ١٥١)
طشت من النحاس المكفت بالفضة باسم
السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، ٦٣٨ هـ -
٦٤٧ هـ ، ١٢٤٠ م - ١٢٤٩ م .
سوريا ، حالياً مجموعة خاصة في بروكسل
بلجيكا .

الفنون الصغيرة :

المعادن :

ترك الأيوبيون التقاليد الساموقية التي اتبعت في عصر الأتابكة تجرى مجراها ، كما شجع الحكام الأيوبيون في سوريا ومصر عمال الموصل المهرة على هجرة بلادهم في القرن الثالث عشر الميلادي لينشئوا مراكز جديدة في دمشق وحلب وسوريا . وبذلك ازدهرت صناعة تكفيت الأواني المعدنية بشرائع الفضة في هذه المراكز . ويلاحظ أن أسلوب هذه الصناعة في المراكز الجديدة كان استمراراً لما كان متبعاً في الموصل ، حيث نجد أنه بالرغم من أن عقيدة الأيوبيين الدينية كانت المذهب السني المتشدد ، إلا أنهم لم يمانعوا في زخرفة الأواني المعدنية بالأشخاص الآدمية . فتظهر من العصر الأيوبي تحف معدنية غاية في الدقة والإتقان مزخرفة بوحدات آدمية وحيوانية .

ويلاحظ أن الأشخاص المرسومة بحجم صغير في أواني السلاجقة والأتابكة ، يزداد حجمها كبراً في الأواني الأيوبية التي كبر حجمها أيضاً . وتشغل الوحدات الآدمية الكبيرة السطح كله تقريباً ، كما تنقش أيضاً هذه الزخارف على السطح الداخلي للإناء . وتتميز هذه الوحدات الآدمية بحركة وحيوية لم تكن معروفة في الزخارف الآدمية الجاهلية السلجوقية والتي ظهرت أيضاً في أواني عهد الأتابكة . ومن أبجل الأمثلة على ذلك طشت من النحاس مكفت بالفضة موجود ببروكسل وعليه اسم السلطان الصالح أيوب حاكم مصر وسوريا (٦٣٨ - ٦٦٤٧هـ) (١٢٤٠ - ١٢٤٩م) . ويلاحظ أن قوام الزخرفة في هذه القطعة ، عبارة عن أشرطة من الزخارف الآدمية والحيوانية (ش ١٥١) ، تصور موضوع الصيد وأشخاص يمارسون لعبة الصوبلجان ، ونلاحظ رسم حالات حول رؤوس هذه الأشخاص . وبالإضافة إلى هذه الزخارف الآدمية توجد زخارف نباتية وخطية . ولقد ظهرت موضوعات مسيحية في زخارف هذا الإناء، ولذلك يرجح أنه صنع خصيصاً لبعض الحكام المسيحيين في الفترة التي اصطلح فيها الحكام الأيوبيون في دمشق مع الصليبيين .



(شكل ١٥٢)

مخطوط مقامات الحريري ، أبو زيد
يخطب في الحجاج ، ٦١٩ هـ -
١٢٢٢ م ، العصر الأيوبي في سوريا
حالياً بالملكتبة الأهلية بباريس .

(شكل ١٥٣)

مخطوطة كليلة ودمنة ، دمنة يخاطب
الأسد ملك الغابة ، ٥٩٧ هـ - ٦٢٠ هـ
١٢٠٠ م - ١٢٢٥ م ، العصر
الأيوبي في سوريا ، حالياً بالملكتبة
الأهلية بباريس .



ومن هذه المجموعة شمعدان بمتحف الفنون الزخرفية بباريس عليه اسم صانعه داود ابن سلامة الموصلى وتاريخ صناعته (٥٦٤٦هـ - ١٢٤٨م) .

الأواني الزجاجية :

بلغت صناعة الأواني الزجاجية قمة مجدها في حلب ودمشق في فترة حكم الأيوبيين . وكانت هذه الأواني تزين بالزخارف المذهبة والمموهة بالمينا . ولقد ظهرت من هذه الفترة أوان زجاجية غاية في الدقة والإتقان^(١) . كذلك اشتهرت العراق ومصر كمراكز لإنتاج لهذه الصناعة . ولقد انتشر استخدام زخارف الرسوم الآدمية والحيوانية التي كانت شائعة في خزف الرى وقاشان في العصر السلجوقي . وكانت الزخارف ترسم على الإناء بالمادة الذهبية ، ثم تحدد الخطوط الخارجية للوحدات باللون الأحمر بعد أن تحرق في الفرن ، وتطلى بعد ذلك بطبقة المينا المتعددة الألوان (الأزرق والأحمر والأبيض) . ويلاحظ تشابه الموضوعات الزخرفية الآدمية الموجودة على أواني القرن الثالث عشر الميلادي مع زخارف الأواني المعدنية .

التصوير :

يظهر في بعض مخطوطات القرن الثالث عشر الميلادي بسوريا التأثير بالأساليب الكلاسيكية ، ويتضح ذلك في نسخة من مخطوطة مقامات الحريري صورت في عام (٦١٩هـ - ١٢٢٣م) ، وترجع نسبتها إلى سوريا^(٢) . ونشاهد في إحدى الصور (شكل ١٥٢) فريقاً من الحجاج يسعون إلى أبي زيد السروجي ، ويلاحظ في رسم الأشخاص تأثر الفنان بالمخطوطات البيزنطية التي كانت موجودة بسوريا . كما نلاحظ إغفال الخلفية وعدم توضيح الأرضية ، وتظهر الأشخاص بسحنة عربية بعيدة عن الشبه السلجوقي .

ومن أحسن مخطوطات القرن الثالث عشر كتاب « كليله ودمنة » الذي يصور بعض القصص الهندية ، وقد قام بترجمتها إلى العربية « ابن المقفع » . ويصور هذا المخطوط ١٢٠٠ - ١٢٢٥م أحداثاً تدور في عالم الحيوان (شكل ١٥٣) ، ويظهر من طريقة رسم الحيوانات والطيور تأثر الفنان بالأساليب الساسانية .

(١) تحدث الثعالبي في كتاب « لطائف المعارف » ص ٩٥ عن شهرة صناعة الأواني الزجاجية .

(٢) اتنجهوزن د. ما قبله ص ٧٩ - ٨٠

نرى مما سبق أن الأساليب السلجوقية المتبعة في عصر الأتابكة استمرت في الظهور في العصر الأيوبي ، ولقد انتقلت هذه التقاليد السلجوقية إلى مصر على يد « صلاح الدين الأيوبي » الذي شب في بلاط « نور الدين بن زنكي » حاكم دمشق. وشجع الأيوبيين هذه التقاليد الفنية على الاستمرار في فترة حكمهم لسوريا والعراق. كذلك ظهر في عصر الأيوبيين بعض التأثيرات الفنية البيزنطية بالإضافة إلى العناصر السلجوقية .

ولقد انتقل كثير من الأساليب المعمارية التي اتبعت في تلك الفترة إلى العصر المملوكي في سوريا ومصر . ولقد تميز ذلك العصر بالاهتمام بالتحصينات الحربية الدفاعية . وذلك لكثرة الحروب التي تخللت عهد هذه الدولة .